المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثامن والثلاثين

١ فبراير (شباط) سنة ١٩١١ — الموافق ٣٠ محرم سنة ١٣٢٩

حسين فخري باشا[1]

ايها الموالي الفخام . ايها الوزراء الكرام . ايها الفضلاء الاعلام

لقد استدار الزمان في هذه الايام فتلاقى ساعتان من الجوّابين في الآفاق واجتمعا عند خاتمة المطاف . ثم التقى كل منهما عصا السَّيار ولبثا يتسايران في ليلة واحدة سبع ساعات حتى اذا طلعت شمس النهار كان ذانك السيّاران قد اخلدا الى الراحة والقرار . في دار غير هذه الدار

هذان الجوّالان هما العام الميلادي . والعام الهجري . وقد ودّعناهما بسلام منذ بضعة أيام ولكنهما قبل ان تنفرط آخر دقيقة من عقدهما الطويل في فضاء النظام الشمسي العظيم كانا قد تآمرا حينما الماحا في المرحلة الثانية عشرة على اختطاف جوهرة نفيسة من كنانة الله في ارضه بل درة يتيمة كانت فخراً لهاتين الهيئتين العليتين اللتين أفاخر بالكلام بلسانهما في هذا المقام

نعم فلقد علمتم كلكم كيف تسلّلت يد المنون على غرة منا وانتشلت من صفوفنا المغفور له حسين فخري باشا رئيس المجمع العلمي المصري ونائب الرئيس في الجمعية الجغرافية الخديوية

والموت نقّاد على كفّه جواهر يختار منها الجيّاد

فكأنما شاءت الاقدار ان تعزز الراحلين الستوبين بثالث عزيز علينا . فاختارت لها

---

(١) خطبة القاها احمد بك زكي سكرتير مجلس النظار في الحفلة التي اقامها للمجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية الخديوية في بيان مناقب المغفور له حسين فخري باشا يوم الجمعة في ٦ يناير سنة ١٩١١ بالقاعة الكبرى لمجلس شورى القوانين

ذلك الرئيس المفضال . ولكنهُ قد سبقها الى مقرّ الابرار . جريًا على عادتهِ في حياتهِ . لانهُ كان على الدوام سبّاقًا الى الغايات . ولكل امرئ من دهرهِ ما تعوّدا . حتى في ساحات الردى

وبهذه المناسبة ارى من واجبي ان اذكركم برجل من رجال محمد علي الكبير محيي مصر ومعيد العلم الى ربوعها ذلكم هو الفريق جعفر صادق باشا الذي شهد المعارك الكبرى وجنى يانعًا ثمر الوقائع يانعًا خصوصًا في حرب القرم وتاهيكم بسيف الفخار الذي اهداهُ السلطان عبد المجيد لذلكم البطل المغوار

هذا القائد الباسل الذي تولى في ايام اسماعيل حكمدارية عموم السودان وجلس توفيق وهو متربع في دست الرياسة بمجلس الاحكام (اي محكمة النقض والابرام) هو الذي انجب حسين فخري وأحسن تربيتهُ حتى دارت الايام فكان الاب رئيسًا لابنهِ في الدار . ومرؤوسًا لهُ في الديوان . وكنا معاشر الطلاب حينئذٍ في مدرسة الحقوق نشهد بهذه النادرة لبيان فضل القلم على الحسام

وذلك ان صاحب الترجمة امتاز وهو في كرسي النيابة بالمحاكم المختلطة فصادفهُ التوفيق الخديوي فارتقى منها طفرة واحدة الى مسند النظارة في الحقانية وكان ابوهُ حينئذٍ رئيسًا لمجلس الاحكام . فكان فخري في الدار مثالاً للولد البار . وفي الديوان ممثلاً الرئيس المطاع

بماذا وصل الى هذه المكانة التي يتعذر مثيلها

بالعلم الذي جعلهُ سبّاقًا الى الغايات وقد عرف لهُ فقيدنا ذلك الفضل فكان يرعاهُ في حياتهِ الرسمية وفي حياتهِ العمومية وما زال يفتخر بخدمتهِ الى ان تولاهُ الله برحمتهِ

ولمزيد البيان استميحكم الاذن يا سادتي في الالمام بنتف يسيرة عن تلك الحياة التي يظنها الناس طويلة لان فخري قضى معظمها في دست الوزارة في مظهر يبهر الانظار . ولكنها في الحقيقة لم تتجاوز نصاب الوسط وحد الاعتدال لانها لم تزد عن السبعة والستين من الاعوام الاَّ قليلاً بخلاف ابيهِ الذي خاطر بالروح وبالجسم . وقارع الدهر في حرب وسلم . فقد كان من المعمّرين لانهُ تيقف على التسعة والتسعين

كان مولد حسين فخري بقصر الدوبارة الموقوف باسمهِ الى الآن بخط المغربلين في القاهرة في يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٤٣ وما وصل العشرين من عمرهِ حتى ظفر باعلى الشهادات الدراسية من المدارس المصرية الاميرية فصدر الامر العالي (اي الارادة السنية) في ٣٠ يرموده سنة ١٥٧٩ (٧ مايو سنة ١٨٦٣) بتعيينهِ معاونًا بمحافظة القاهرة وكان تاريخ الارادة السنية

١٩ صفر سنة ١٢٧٩ فبقي حسين فخري افندي في هذه الوظيفة سنة واحدة ونصف سنة ثم صدر الامر في ٣ هاتور سنة ٥٨١ (١٣ نوفمبر سنة ١٨٦٤) بنقله معاوناً الى نظارة الخارجية ولبث هناك مدة تناهز العامين . إذ في ذلك العهد اشتركت الحكومة الخديوية في معرض اوربي للمرة الاولى فارسلته في اول يناير سنة ١٨٦٧ مندوباً عنها في جملة الوفد الذي بعثت به ليمثلها في « الاكسپوزسيون » كما كانوا يقولون لان لفظة المعرض لم توضع للدلالة على ذلك المسمى الحديث الا بعد ان انتعشت اللغة العربية في أخريات ابي الفداء اسماعيل

ولما كان حسين فخري افندي يميل بطبعه الى التبسط في العلم ورأى في عاصمة الفرنسيين مناهله عذبة للطالبين . وموارده سائغة للشاربين فقد سعى وسعى والده حتى ابتعثه الحكومة المصرية في فرنسا بعد انتهاء الوفادة فاندمج في سلك الارسالية المصرية واقبل على تلقي الدروس في علوم الادارة والقانون الى ان توسطت سنة ١٨٧٠ فارتفع زئير المدافع فانخرس الاساتذة وكشرت الحرب عن انيابها فانزوت التلامذة وتادى المنادي متمثلاً بقول الشاعر العربي

السيف أصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ولما كان صاحب الترجمة من الألى يميلون بفطرتهم الى السكينة والسلام فقد اودع وفاته ادراجه . وودع اترابه . وعاد ادراجه . ولم يعاود فرنسا وديارها الا بعد ان وضعت الحرب اوزارها وتقرر الصلح واستقر السلام وعاد الرجحان . وما زال عاكفاً على البحث والدرس في مدينة إكس من اعمال الاقليم المعروف عند جغرافيي العرب باسم «بروينصة» تعريباً للفظه الافرنكي (Provence) الى ان فاز باحراز الاجازة التي كان يفتخر بتوقيع جول سيمون (Jules Simon) عليها وهو ذياك الوزير الخطير والكاتب القدير والفيلسوف الشهير

ثم هو الا ان تقدم حسين فخري افندي في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ بين يدي الخديو اسماعيل يحمل لعناه تلك الشهادة وبين جنبيه تلك المعارف حتى بهر ولي الامر فانعم عليه بالرتبة الثالثة اعتراقاً بفضله ورفعاً لقدره لانه تخطى به رتبتين مرة واحدة وهما الخامسة والرابعة وقد كان هذا في ذلك الزمان شأن تتطاول اليه اعناق الرجال وصدر الامر الخديوي ايضاً بتعيينه في جملة الموظفين بنظارة الحقانية

فكانت هذه الخطوة الاولى الصحيحة لمن يحق لنا ان نسميه من الآن بأبي الوثبات . والسباق الى الغايات . اذ لم يمض عليه سوى سبعة شهور حتى قفز قفزة ثانية فقد استصدر المرحوم شريف باشا ناظر الحقانية في ذلك العهد امراً عالياً في ٢ يونيه سنة ١٨٧٥ بتعيين حسين فخري بك « وكيلاً للاهالي » لدى النائب العمومي بالمحاكم المختلطة . وبقي صاحبنا

في هذه الوظيفة اربع سنوات تقريباً . فلما جاء يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ دخل في الخامسة والثلاثين من عمره وطفر الطفرة الكبرى فانتظم في سلك الوزارة التي ألفها حينئذٍ شيخ الوزراء صاحب الدولة رياض باشا

وبهذه المناسبة وثب صاحب الترجمة من الرتبة الثالثة الى رتبة المِيرميران متخطياً رتبتين ايضاً في هذه الكرّة عملاً بالقاعدة العربية : « العادة تثبت مرّة »

وما زال حسين فخري باشا متقلداً نظارة الحقانية حتى تخلّت الوزارة عن الاعمال في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ولكنهُ اشتغل في خلالها بتمهيد السبيل لتحويل المجالس القديمة الى تلك المحاكم الاهلية الزاهرة بيننا الآن ووضع مشروعات القوانين الخاصة بهذا التنظيم : تلك القوانين التي ستبقى فخراً خالداً لهُ مهما اعتورها من التعديل والتبديل لانهُ تشرف بوضع اسمهِ عليها في وزارتهِ الثانية

ولقد كان في اعتزاله الاعمال دليلٌ جديدٌ على مهارتهِ من فرع يكاد لا يخطر لنا على بال . فلا شك في ان الاكثرين يظنون ان حسين فخري باشا انما كان من رجال القانون فقد تناسى الناس انهُ كان ايضاً من اهل البراعة في تدبير الشؤون المالية . فما كاد يستريح في عقر دارهِ حتى توصل اليهِ بنك مينا البصل في شهر نوفمبر سنة ١٨٨١ وكان من البيوتات المالية التجارية المشهورة بالاسكندرية فتولى رئاسة مجلس ادارتهِ بعد ان استأذن الحكومة ولم يأخذ منهُ مرتباً على هذا العمل . وكل الذين اختلطوا بالفقيد يشهدون لهُ بالدراية في استثمار المال ولكن مع الصدق والنزاهة والاستقامة

وفي ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ انتظم حسين فخري باشا مرّة ثانية في سلك الوزارة التي ألّفها ذلك الرجل الغني عن التعريف واعني بهِ الوزير الشريف شريف طيّب الله ثراهُ وجعل الجنة مثواهُ . فصدرت القوانين التي اشرنا اليها وصدر القانون النظامي وقانون الانتخاب وظهرت المحاكم الاهلية في ثوبها القشيب ونظامها الجديد . وكان صاحب الترجمة متقلداً نظارة الحقانية الى ان قضت الظروف بسقوط الوزارة في ٧ يناير سنة ١٨٨٤

ولكنهُ في هذه المدة من الفراغ لم يشتغل بالامور المالية بل دعتهُ الاحوال الى الاهتمام بالمسائل السياسية فقد انتدبتهُ حكومة الجناب الخديوي لحضور المؤتمر الدولي الذي انعقد في باريس سنة ١٨٨٥ للاقرار على حيادة القنال فقام بهذه المهمة بما أوجب رضى فرنسا عنهُ لانها منحتهُ وسامها العلي عند اختتام المؤتمر

فلما كانت سنة ١٨٨٨ عاد الى نظارة الحقانية مرة ثالثة في الوزارة التي ألّفها صاحب

الدولة رياض باشا وبقي فيها الى يوم اعتزالها في شهر مايو سنة ١٨٩١ ولكنهُ دخل في سلك الوزارة التي اعقبتها تحت رئاسة الوزير الكبير صاحب العطوفة مصطفى فهمي باشا . على انهُ استقال وحدهُ منها في اواخر تلك السنة

وبقي بعد ذلك بعيداً عن اعمال الحكومة الى ان جاءت سنة ١٨٩٣ وفيها كانت خطوتهُ الثالثة وهي خطوة قصيرة المدى وذلك انهُ تقلد رئاسة مجلس النظار ولكن ثلاثة ايام كوامل

ان هذه الوزارة التي كانت اقصر الوزارات عمراً جاءت كالمقدمة لاطولهن حياة بعد فترة يسيرة فيها بينهما ظهرت فيها وزارتان احداهما برئاسة دولتلو رياض باشا ولم يكن لصاحب الترجمة نصيب في احد مناصبها واما الثانية فهي التي ألفها في ١٦ ابريل سنة ١٨٩٤ بالغة الزمان ونادرة الشرق في الذكاء والدهاء واعني بهِ المرحوم المبرور نوبار باشا فانهُ استدعى صاحب الترجمة وقلدهُ الوزارتين في الاشغال العمومية والمعارف العمومية . فلما سقطت وزارة نوبار بقي صاحب الوزارتين في منصبهِ تحت رئاسة صاحب العطوفة مصطفى فهمي باشا . وتلك هي الوزارة التي اشرت اليها بانها كانت اطول الوزارات عمراً في مصر وفي غير مصر في هذا العهد الحاضر لانها استمرت ثلاثة عشر عاماً بالتمام . ولكن صاحب الوزارتين تخلى عن مسند المعارف العمومية في سنة ١٩٠٦ وانفرد بنظارة الاشغال العمومية

غير انهُ كان في خلال هذه الوزارة تجتمع في شخصهِ اثناء الصيف اكثر الاعمال الرئيسية الكبرى بطريق النيابة عن القائم مقام الحضرة الخديوية وعن رئيس مجلس النظار وعن كثير من زملائهِ اثناء تغيبهم بالاجازة . فكانت اشغال الحكومة كلها تكاد تنحصر في بعض الاحايين في شخص ناظر الاشغال العمومية . ولقد عددتها ذات مرة لوجدتها قد بلغت العدد الكامل على طريقة اهل الحساب من الاعراب . وهو عدد السبعة

وماذا بعد الكمال الا الزوال

فذلك الذي كان يضع توقيعهُ على القوانين والاوامر العالية باسم الحضرة الفخيمة الخديوية وبالنيابة عن رئيس مجلس النظار وعن ناظر الداخلية وعن ناظر الخارجية وعن ناظر المالية وعن ناظر الحقانية وبصفتهِ ناظر الاشغال العمومية قد اعتزل الاعمال مرة واحدة في ١١ نوفمبر سنة ١٩٠٨ مع ما بذلوهُ من الالحاح عليهِ في الدخول كرة اخرى في الوزارة الجديدة لانهُ اصر على الانقطاع الى الراحة والسكينة وهما من اخص الصفات التي امتازت بها حياتهُ في ايام العمل وفي ايام الفراغ

ولكنهُ كان في الحالين عنوان المواظبة والمثابرة على الحضور في جميع الجلسات التي

تعقدها الجمعيات العلمية والفنية التي انتظم فيها . فلا يكاد يخلو من اسمه محضر من محاضر المجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية الخديوية ولجنة العاديات المصرية ولجنة حفظ الآثار العربية وكل اقرانه يشهدون بانه كان على الدوام يحضر في الميعاد المضروب بالتمام بلا تقديم ولا تأخير

وقد خدمه التوفيق في ايام توفيق وابتسم له الزمان في ايام مولانا العباس وخصوصاً في وزارته الاخيرة بالاشغال العمومية فاتمّت الحكومة الخديوية بناء الدار الكبرى للمحاكم الاهلية ودار الكتب الخديوية . ودار العاديات المصرية . وكباري جزيرة الروضة . وكل هذه الآثار بالقاهرة . هذا فضلاً عن المدارس المتعددة للبنين والبنات والورش الصناعية بالقاهرة والاسكندرية وغيرها من امهات المدائن . وناهيك بخزان اسوان . وقناطر اسيوط . وقناطر زفتي . وتحويل الحياض بالوجه القبلي ونحو ذلك من الآثار الكبيرة النافعة والعمائر المفيدة الخالدة التي ازدهى بها عصر مولانا العباس . وله في افتتاحها تلك الحفلات المشهورة التي القى فيها خطبة الرئاسة المأثورة واخصها تلك المقولة التي القاها بين يدي ولي النعم في حفلة افتتاح الخزان في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠٢

ولقد نقبت كثيراً عساني اظفر لصاحب الترجمة ببحث علمي او بتأليف مخصوص فلم اهتد الى ذلك سبيلاً . ولعل مشاغله الرسمية المتعددة هي التي كانت تحول دون تفرغه لمباشرة مثل هذه الاعمال . وحسبه فخراً انه كان رئيساً للجنة التي عُنيت بوضع القوانين المصرية وانه ذيلها باسمه هذا فضلاً عن المذكرات الرسمية الكثيرة التي ما كان يألو جهداً في العناية بتحبيرها وتصحيحها حتى ترتضي نفسه التوقيع عليها

ولقد شاهدته وهو يضع امضاءه على مئات الالوف من الاوراق والصكوك فكان توقيعه مثالاً على الدوام متجانساً في الخط والنقط والقياس سواء رقمه بحروف عربية او بحروف افرنكية . حتى ان الخبير اذا قارن بين هذه التواقيع لا يسعه سوى الحكم بانها مطبوعة على الحجر او منقولة عن الفتوغرافيا لتمام تشابهها في دقائقها وجلائلها وفي استقامتها واعوجاجها بل في النقط ومواضعها

فهذا التدقيق في كل امر جليل او دقيق مما امتاز به المرحوم حسين فخري باشا في جميع ادوار حياته من اولها الى آخرها

حدثني قبل وفاته بيومين اثنين انه عند ما ظهرت المسكوكات المصرية المتداولة الآن على الطريقة العشرية طلب وهو ناظر للمعارف العمومية من مدير الكتبخانة الخديوية أن

يجمع قطعاً من النقود التي بطلت المعاملة بها ليضمها الى المجموعة الموجودة بدار الكتب الخديوية . فهزّ بعضهم اكتافهُ وظن هذه الفكرة تافهة لا تستحق العناية

ولكنهُ تشدد رحمهُ الله في امرهِ فبحثوا في طول البلاد وعرضها ووسطوا نظارة المالية على غير جدوى . مع ان تلك النقود التي وجدتها الفرش والبارة كانت بين ايدي الناس قاطبة بالامس فاصبحوا وهم يكادون لا يجدون لها اثراً ولا يدرون عنها خبراً فكان ذلك موجباً لزيادة عنايتهِ بهذه المسألة حتى ظفر بمجموعتين عند بعض المغرمين من الفرنجة فاشترى احداها وحفظها بالكتبخانة الخديوية

اما اخلاقهُ فحدث عن البحر ولا حرج . شمائل تسري مسرى النسيم . وصدر رحيب وصدق في القول . وبساطة في المعيشة . وتواضع في المعاملة . لذلك كان محبوباً من الجميع مرضياً عنهُ من القريب والبعيد

وقد اشبه اباهُ في سجاياهُ اللهمَّ الاَّ فيما يتعلق بالحرب وآلات الكفاح واعجب لنا مثلهُ نجلين موفقين ان شاء الله وهما جعفر ومحمود

وانا ارقب لجعفر ان يخلفهُ ويزيد عليهِ في المهارة في الشؤون المالية والسياسية كما اتفاءل لمحمود ان يكون خير خلف لخير سلف من الوجهتين العلمية والادبية ولمصرنا ان تتعزى بهذين الفرعين الذابلين من تلك الارومة التي طاب مغرسها وزكا نباتها . وانبتت ثمراتها

وفي الختام ارسل عبارة الوداع الاخير باسم المجمع العلميّ المصري والجمعية الجغرافية الخديوية الى رئيسنا الافخر

سلام عليك يا ابن جعفر و يا ابا جعفر

احمد زكي

[المقتطف] لقد اجمل الخطيب في وصف الفقيد فاحسن واعجب وصوّرهُ للقارىء والسامع في حياتهِ العلمية والسياسية والادارية تصوير خبير ولم يطنب . وخير الكلام ما قل ودل

وبعد فقد رأينا الفقيد منذ احدى وثلاثين سنة في زيارتنا الاولى لمصر وكان من اعضاء الوزارة الرياضية الاولى فرأينا منهُ شهماً كريماً غيوراً على ارتقاء وطنهِ ونشر العلوم والمعارف فيهِ واهدى الينا حينئذٍ صورتهُ وهي المرسومة في صدر هذا الجزء مع صورة من صورو الحديثة . ثم اجتمعنا بهِ مراراً بعد اقامتنا في مصر ولا سيما لما كان ناظراً للمعارف فكنا نراهُ غاية في الاعتدال ولين العريكة ووزن الامور بميزانها الحقيقي والمجاهرة برأيهِ ولو خالف من يود مرضاتهم